



من المُسلَّمُ به أنَّ الهزائم العسكريَّة تسبِّقُها هزائمٌ وانكساراتٌ في الأخلاق والمجتمع والسياسة والفكُّر والاقتصاد وكلِّ شؤون الحياة، وكذلك هي الانتصارات العسكريَّة تسبِّقُها انتصاراتٌ في كلِّ شؤون الحياة.

وَحْدَهُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ وَالنَّهِيُّ يَتَعَظَّمُونَ مِنْ دُرُوسِ التَّارِيخِ وَالْأَقْلَمُ مِنْهُمْ وَعِيَاً هُمْ مِنْ يَتَعَظَّمُونَ بِالْمَصَائِبِ وَمِنْ لَا يَنْفَعُهُ الْخُطَابُ وَلَا الْمَصَابُ فَمَصَابُهُ فِي نَفْسِهِ أَعْقَمُ وَأَبْلَغُ.

إِنَّ عَدَمَ الاعتبارِ مِنَ الْمُصَبِّيَّةِ مِنْ طَبَاعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي حَادَثَةِ بَنِي قَرِيظَةِ، يَسْأَلُ الْيَهُودُ كَعبَ بْنَ أَسْدَ مَاذَا سِيَحْلُّ بِهِمْ فَقَالَ كَعْبٌ: "فِي كُلِّ مَوْطِنٍ لَا تَعْقِلُونَ، أَلَا تَرَوْنَ الدَّاعِيَ لَا يَنْزِعُ، وَأَنَّهُ مَنْ ذَهَبَ بِهِ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُ"

مِنَ الطَّبَيِّعِيِّ أَنْ يَنْقُسَ النَّاسُ أَمَامَ الْهَزِيمَةِ وَالنَّكَبَةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ:

- 1- المنهزم العاجز (انتهينا) (لا مقام لكم فارجعوا) مذهول بوقع الكارثة.
- 2- المنكر الغائب المنفصم عن الواقع (هزمناهم وانتصرنا ليعلن النصر قبل بدء العراق) ثم يفارقون الجبل لجمع الغنائم.
- 3- القاضي المحاكم (فلان هو السبب، وفلان هو المسؤول، وفلان هو من نزل، من الجبل وتسبب بالمبصبة)
- 4- المعتبر المثابر (يفرغ من دفن الشهداء ويخرج في اليوم التالي إلى حمراء الأسد بكل عزيمة وإصرار ليتابع المسيرة) لا شك أن كل كارثة تقع على جماعة ما يسبقها قرارات كارثية.

والقرارات الكارثية هي نتيجة لتصورات وعلاقات خاطئة بين الأشياء وهذه التصورات و العلاقات هي نتيجة لأفكار بالية متجردة في عمق اللاشعور.

وعليه فلا يمكن أن نعبر من الكارثة ونحن نستصحب نفس الأفكار التي أودت بنا إلى السقوط فنعيد التجربة نفسها ونتوقع

نتائج أفضل.

لذلك كان لا بد من إصلاح عالم الأفكار الذي يشكل بداية التصحيح والتصويب للمسيرة الراشدة لا دور فيها للمجاهيل والأغمار.

فإن الأمم المتقدمة عندما تقع في كارثة وهزيمة تراجع نظام أفكارها وتقف على مواضع الخلل فيها. والأمم المختلفة إما أن تنسب ما حصل لخيانة الداخلية أو للمؤامرة الخارجية ثم تحل الأمر بتصفية المعارضة السياسية الخائنة لتحقق مزيداً من السطوة والسيطرة على أجهزة الحكم وتمارس المزيد من الطغيان.

إن من حسنات المصيبة أنها تكشف أصحاب الخطاب العاطفية عن سفاهتهم وتفضح المزايدات الفارغة التي يخدر بها الشعور عن رؤية الحقيقة وتمارس الخداع البصري ليشوّش على الواقع والحقيقة بسائل من البشريات والمنامات والبكائيات التي تجذب السذج والدهماء للاحتفال بمكاسب تكتيكية حزبية، سرعان ما تتحوّل إلى نكبات استراتيجية.

ومن حسنات المصيبة أنها تفسح المجال قليلاً لصوت العقل الخافت بين شغب المشاغبين أن يعلو حتى ينفذ لعقل الشباب ويفسرهم بحقيقة المشهد الكلي دون اجتزاء للحقيقة أو تدليس فيها.

فإن النصر الذي لا يحتمله وعي المنتصرين سرعان ما يتحول إلى مأتم كبير لأصحابه وصراع بينهم على اقتسام المكاسب وفق شريعة الطمع.

وقد تكون الهزائم الصغرى أحياناً ضرورة قدرية خلال مسيرة الثورة نحو الانتصارات الكبرى، لتحسين الصنوف وتلافي التغيرات وتصحيح المسير، وتصويب الهدف نحو الغاية المنشودة، ومضاعفة الحذر من الظواهر الصوتية الخداعية، واكتساب المناعة من فتن الأفكار المسمومة، لأنها لا معنى للانتصارات العسكرية مع خسارة معركة الوعي.

نستطيع أن نقول هناك وعي جديد يتشكل بين شبابنا^١ فرغم كل العبر والمراءفة والتوظيف الذي مارسه الشرعيون الجدد على نصوص الوحي، وجماعات جعلت من نفسها وكالات حصرية لتمثل الدين، فإن أغلب النقد اليوم يطال هؤلاء من مارسو الوصاية على الدين فهما وتطبّقاً وعيّاً وتوظيفاً، ولم ينالوا من الدين أبداً، مما يشير أنهم باتوا يدركون أن الخلل في سفة الوصي وليس في جور الوصاية.

ولكننا في سباق مع الزمن وهو مرتبط ب مدى قدرتنا على أن نعي مقدمات الكوارث قبل حصولها، وأن ننلقي عوامل الهزيمة قبل حلولها، فإن الحلول المتأخرة غالباً ما تكون عديمة الجدوى، فصاحب الوعي القاصر بتحديات الواقع أشبه بالشخص الذي يسابق ظله كلما تقدم للأمام خطوة تقدم ظله عليه خطوة وهكذا يبقى في وضعية الخاسر متخلفاً عن حسم الصراع والمعركة.

إن الاجتهاد الواقعي، والموازنة الصحيحة، والأولوية الضرورية، واعتبار المال، وتميز حال التمكين من الاستضعفاف، ومراعاة السنن والسياسة الرشدة الضابطة لاتجاه البندقية تشكل قواعد أساسية وافكاراً جامعاً ضرورية لنقيل بها عثتنا. كما الابتعاد عن شهوة السيطرة والاقصاء والاستحواذ، والتحلي بالواقعية والتشاركية والاستيعاب والتواضع واحترام التخصص هي عوامل هامة لنملك زمام مبادرتنا ونرسم معالم صحوتنا ونعيد فيها الكرة من جديد.

لم ولن نشك يوماً بطريق حررتنا رغم الألم والجرح والخذلان لكن لا بد من خريف عابر يُسقط كل الأوراق اليابسة عن شجرة ثورتنا ولتبقى الأغصان الوفية متمسكة بأصولها تواجه عواصف الشتاء وهي ترنو إلى الربيع القادم لتورق من جديد.

المصادر: